بقلم
أمين ريان

نحن نمارس الفكاهة منذ زمن بعيد

حتى ليمكن ان تعدنا .. (انا وعلى زعتر) من الممثلين المخضرمين ...

وكان المفروض ان نصبح نجوما الآن ... فهذا ما حدث لزملائنا ... وحتى اولئك الذين كنا ننظر اليهم ... من عل اصبحوا نجوما ...

لا يخفى عليك طبعا ان فى كل فن اناسا ينظرون الى آخرين من عل فليس الامر مجرد ضحك ... والا انقلب الى هزء وسخرية ... وفى مجالنا ... مجرد ان يصبح الشخص مضحكا فى الشوارع والمقاهى بعيدا عن خشبة المسرح أو الاستديو ... فاننا لانعتبره فنانا ... بل نعتبره مسخة ... وننظر اليه من عل

ولست ادرى هل هو الحظ ... أم ماذا ... ذلك الذى جعل بعضهم ينظر الينا من عل فى هذه الايام .... ويزعم على زعتر أنه ليس الحظ ... بل العيب الذى هو عيبنا ...

فاذا ما سألته ... ما هو هذا العيب ... راح يتخبط ... فيذكر مرة اننا وقوران بطبعنا ... حريصان على احترامنا بحكم البيئة التى نشأنا فيها .... ويذكر مرة اخرى أننا تقليديان فى فننا .. ويجعلنا كل هذا نكسب الاحترام العادى حقا بينما نفقد مواهبنا غير العادية ...

وليس هذا الا كلاما فارغا ... بل كلاما هزليا يجعلنى أسخر من زعتر فى الواقع مهما ساءه ذلك ... أو خدش حياءه

وعثر ذات مرة على حكمة فى احد الكتب ... وفهم من هذه الحكمة أن الفن الذى لا يمارس الا داخل محاريب الفن .. كالدين الذى يصبح معطلا لانه لا يمارس الا داخل محاريب العباده ...

ولم افهم خطر هذه الحكمه فى حينها واسفاه ...

وفهمت الآن ... انه عندما كان يشهد فى حسرة نجاح بعض «المزبلجين» وصعود نجمهم ... كان قد اتخذ هذه

الحكمة « الفاجعة » شعارا له من روائى وكم كنت اشير له الى سخرية الناس من هؤلاء الناجحين فى واقع الحياة وهو مالا نقبله لأنفسنا لاعتبارات اقلها هو انه ابن مولانا الشيخ موسى «مدرس الخط» .. ولم يكن ابوه من اصحاب الفضيله حقا ... ولكنه رحمه الله كان كان يعد نفسه كذلك ... ويعدنى فى الوقت نفسه رفيقا ... بل امينا على ابنه الوحيد ... فماذا كان ينتظر منى وقد كتب علينا ان نكون من رجال الكوميديا ... هل اتركه ليسخر منه الناس فى المقاهى والافراح كالعبيط ..

سهرت حتى لاينحدر الى هذا الحضيض ... فاقمت من نفسى حارسا على مزالق الفن ...

فكنا مهما أصاب الواحد منا من رضوض بسبب « شقلبة » فى دور هنا او هناك ... ما أن ينتهى التمثيل حتى نسرع الى وقارنا وتعقلنا ... فما كان أحد « ولو من أصحاب الفضيلة الحقيقيين يشتبه فى أمرنا ...

وحين مثلنا معا هزلية .. (حماتى الحنون)... وأحدث زعتر بمؤخرة رأسى ذلك الورم الشهير فى حجم الدومة... «حتى خيل الى أن رأسى قد أصبحت فى حجم (الشمامة) » اذ كان يلعب دور حماتى ...

أقول ... ما أن أسدل الستار ... وعدنا الى ثيابنا ولهجتنا العادية ... وما أن أمسكت عصاتى ووضعت غليونى الأثرى بين شفتى حتى عجز أخبث الخبثاء فى الحى عن فضح أمرنا ...

ولم يصدق أحد فى الحى أن السيدين الوقورين كان أحدهما بالأمس حماة متصابية فى شعر مصبوغ مستعار ومئزر فوق الركبتين ... ولا أننى كنت عريس غفلة يضع جلبابه داخل سرواله وقد ركب أسفل أنفه شارب من النوع الذى يسمى « شنب ختفة » فأى عيب هذا الذى يدعوه عيبنا ... لست أدرى ...

على أننى منذ التحق زعتر بتلك الوظيفة ... شعرت بمدى ما أحدثته تلك الحكمة « المزبلحة » فى مخه ...

كنت قد مرضت فى نهاية الصيف الماضى ... ولما طال بى المرض أوصيته أن يقبل أى دور يعرض عليه بدونى .. لكنه أخبرنى أنه لا يستطيع ذلك ولما سألته لماذا ... أخبرنى أنه لا لسبب أو آخر أكثر من أنه لن يكون مضحكا بدونى ... وربما لا يفهم أحد ذلك كما أفهم أنا ... ويعلم الله أى مخلوق عكر نكد ... كان كل منا فى غياب صاحبه ... حتى ان أمى كانت تسرع اذا ما رأت الشر فى عينى وشعرت بالخطر يهدد البيت ... كانت تسرع فتناديه من البيت المواجه ليذهب الشر ويزول الخطر ...

ولما شفيت من مرضى ... دهشت هل خف النشاط الكوميدى بسبب برودة الجو ... أم نسينا المخرجون ... لكنى ألفيت زعتر قد استقر فى وظيفته الجديدة ... فى عمل لم الق اليه فى حقيقة الامر بالا ... اذ هو عمل كباقى الاعمال الحكومية ... يقوم به رجال فى ثياب متناقضة ولحى طريفة فى بهو فسيح

لا يختلف عن غيره الا من حيث جوه الحزين كأنه المعزى ولما كنت أفتقد صديقى ... فقد كان على أن أزوره فى هذا المكان .. اذ من الذى أستفسر منه كيف نسينا المخرجون ... ومن أتسلى معه على «القرجوازات» التى أصبحت ويا للعار تحتل مراكزنا ... كما كان لا بد وأن أنتزع من رأسه تلك الحكمة القديمة التى يمكن أن تعمل فى رأسه عملها اذا ما غبت عنه يوما أو يومين ...

وفى الزيارتين أو الثلاث السابقة .. لاحظت أن شكه فى حظنا قد تحول الى شك فى كفاءتنا .. كما أصبح يعتقد أننا قد تقدم بنا السن لنكون معاصرين ...

واكتفيت فى تلك الزيارات بأن حذرته من الحكمة الفاجعة التى آن الأوان أن يخجل منها ... اذ لم يضعها بين يديه الا الشيطان الرجيم نفسه ... ونسبت كلامه الى التواضع الذى يمتاز به الفنانون ذوو الاصالة عادة ..

أقول حسبت شكه تواضعا لايستحق أن القى اليه بالا .. ولكنى كنت كمن يعرف من أين يدخل الفأر دون أن يقطع عليه سبيله ... ولهذا ما أن وجدته فى زيارتى السابقة ... وقد بهت حين رآنى ... وأخذ يبحث عن الكلام فلم يصدر عنه الا صوت مرعوش ، كأنه ليس صوته ، وراح يلتفت حوله كفأر فى المصيدة ... أقول ما أن رأيته هكذا ويا للعار حتى عرفت أن هذا الشك هو القضاء المبرم ... بل النهاية الدرامية التى يخبئها لنا الحظ .. شعرت أن شكه فى رسالتنا لم يعد تواضعا بحال بل أصبح مسخرة من المساخر ... لايصدر الا عن « أراجوز » ...

ويبدو أنه كان قد لمح لى أو أشار بطرف خفى الى أنه لا يرتاح لزياراتى له فى جو هذه المحزنة ، التى أصبح موظفا بها ، والتى لا يعنينى قط أن أعرف أى عمل تكون ... ولكنى لانشغالى الجدى بالأحوال الفنية ... ولانشغالى سرا بتأمل اللحى التى يطلقها زملاؤه الجدد وتصنيف نماذجها ... لم أفطن الى تلميحه والا اشاراته المتأففة .. وما أن قرأت بالامس فى جرائد الصباح عن توزيع الادوار فى روايتنا (الحماة الحنون) استعدادا لاخراجها فى السينما ... حتى جن جنونى . أسندوا دورينا الى أولئك الجدد ... المهرجين ... الذين لا يصلحون الا لاضحاك الناس فى الموالد ... فماذا أفعل ... لمن أذهب ؟ الفيت قدماى تسوقانى الى زعتر .. فما أن ذكرته بدورنا الحبيب حتى ذكرنى بما قاله لى من قبل ... ولما سألته ماذا قال لى من قبل ... اذا به يفترى على كذبا ... فيزعم أنه نصحنى أن نحترم أنفسنا وكأننى لا أعرفه ولا أعرف أنه أعجز من أن ينصح برغوثا ... ولما سألته من الذى علمه هذا الكلام ... أخبرنى أنه منذ عثر على هذه الوظيفة وصل الى هذه المعلومات بنفسه ... وأشار الى رأسه ثم أردف ...

كما أن فرق عامين أو ثلاثة بين عمرينا لا يجعله طفلا وقد ابيض شعره وتخلعت أسنانه ... وآلمنى قوله ... أن نحترم أنفسنا حتى لم ألق بالا الى باقى الهراء الذى تفوه به ... فقررت استجوابه قبل أن يحدث مالا تحمد عقباه ...

فسألته ... ان كان أحد قد جرؤ على أن يتخذنا هزوا حتى يقول ... نحترم أنفسنا ... فأجابنى اللعين أنه لم يرد أن يقوم لى كلاما يسوؤنى ... ولكن زيارتى له هنا فى جو الوظيفة فتحت عينيه على أشياء ما كان يعرفها من قبل ويبدو أنه ظن أننى يمكن أن أتركه وشأنه عند هذا الحد المضحك من علاقتنا ... فلم يفطن الى جدية هذه العلاقة .. التى لم يعد في العمر بقية لتغييرها أو فصمها ... وأننى لا يمكن أن أتركه وشأنه حتى ولو وصل بى الأمر الى القيام بألعاب « عجين الفلاحة ونوم العازب وما اليها ».

والقيام بها هنا ... أمام زملائه الوقورين ...

لذلك سألته من تحت أضراسى بلهجة الوعيد ...

« هل أخبرتهم هنا أنك حماتى ... وأنه برأسى تلك الدومة أثر ضربتك ».

فارتاع المسكين واهتزت أنفه الكاريكاتورية وقال ...

« أنا ... أقسم لك ... اقسم لك ... »

فضيقت عليه الخناق قائلا : « فما بال ذلك الأحمق يخفى ضحكاته فى لحيته.. وذلك المزبلح هناك يتهامس عنى من تحت شاربه ... »

ومضى زعتر فى ابعاد الشبهة عن نفسه ... ثم ردد كمن أصابه مس ..

« لا بد أنك لم تشف تماما ».

ولما قمت عن مقعدى وضيقت عليه الخناق اذا به يضع سبابته التى تشبه عود الحطب فوق صلعتى وهو يردد كأنه لم يعد يخشى بأسى ...

« يا لله ... أحقا لا تدرى ... »

« تساقط شعرك حتى أصبح فى مؤخرة رأسك ومع ذلك تخط فيه هذا الفرق ... »

وفجأة انتابت اللعين نوبة من الضحك أفقدته احترامه وسط القاعة المحزنة فراح يقهقه كأننى « أراجوز » أمامه ... وصاحبه فى ضحكه بعض الحزانى من سكان المكان ... فما أن تلفت اليهم حتى تهدل شاربى وكنت قد برمت طرفيه ورفعتهما بعد جهد جهيد ... وتملكنى غضب درامى فاذا بى أخلع القرنفلة البيضاء من عروة جاكتتى وأقذف بها الى الارض ... وكبست قلنسوتى فوق رأسى ... لكن ما أن قبضت على عصاتى حتى تقهقر زعتر واحتمى ببعض زملائه ... وضج المكان بالسخرية ... فأوحى الى جبنه والضحك بالذى حدث بعد ذلك .. ولكنى لم أستطع أن أناله بعصاتى وأسفاه .. فلما ألفيت نفسى لم أبلغ فى تأديبه مأربا قررت أن أصارحه برأيى فيه ... فصحت أنه ليس كوميديا ... بل ولم يكن فى يوم من الايام انما هو مسخة كالقرد ميمون ... عندئذ صاحب الضحك من حولى بعض التصفيق ... ودهشت كيف تزايد عدد الحضور من حولى هكذا فكررت له : (مسخة) عدة مرات ... ولست أدرى هل نسيت نفسى بعد ذلك أم أعمانى الغضب ... اذ لم أستطع ضربه فاذا بى ألقى بعصاتى ... ثم ... ثم ماذا تظن أنى فعلت ؟؟

ماذا تظن !! تشقلبت ...

نعم ... تشقلبت له على الارض ... هكذا دون مسرح ... أو تمثيل ثم أطلقت فى وجهه ضحكة ... أية ضحكة ... يالها من ضحكة ...